من قولهم ناشت إذا أبطأت وتأخرت ومنه البيت:

تمنى نئيشا أن يكون أطاعني

أي: أخيرًا.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ويقذفون﴾ معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية يعني: وكانوا يتكلمون ﴿بالغيب﴾ ويأتون به ﴿من مكان بعيد﴾ وهو قولهم في رسول الله ﷺ شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي لأنهم لم يشاهدوا منه سحرًا ولا شعرًا ولا كذبًا وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لأن أبعد شيء مما جاء به الشعر والسحر، وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم وجربت الكذب والزور وقرئ ويقذفون بالغيب على البناء للمفعول أي يأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه وإن شئت فعلقه بقوله، وقالوا آمنا به على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم آمنا في الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئًا من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائبًا عنه شاحطًا والغيب الشيء الغائب، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله: بين يدي عذاب شديد، وكانوا يقولون وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قائسين أمر الآخرة على أمر الدنيا فهذا كان قذفهم بالغيب، وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة لأنّ دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿ما يشتهون﴾ من نفع الإيمان يومئذٍ والنجاة به من النار والفوز بالجنة أو من الرد إلى الدنيا كما حكى عنهم ارجعنا نعمل صالحًا ﴿بأشياعهم﴾ بأشباههم من كفرة الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم ﴿مريب﴾ إما من أرابه إذا أوقعه في الريبة والتهمة أو من أراب الرجل إذا صار ذا ريبة ودخل فيها وكلاهما مجاز إلا أنّ بينهما فريقًا وهو أنّ المريب من الأوّل منقول ممن يصح أن يكون مريبًا من الأعيان إلى المعنى، والمريب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك كما تقول شعر شاعر. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقًا ومصافحًا[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة فاطر مكية

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُولِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

﴿فاطر السموات﴾ مبتدئها ومبتدعها وعن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها[2] وقرئ الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة وقرئ جاعل الملائكة بالرفع على المدح ﴿رسلاً﴾ بضم السين وسكونها ﴿أولي أجنحة﴾ أصحاب أجنحة وأولو اسم جمع لذا، وكما أن أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما في المتمكنة المخاض والخفة ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ صفات لأجنحة وإنما لم تنصرف لتكرار العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وحذام عن حاذمة وعن تكرير إلى غير تكرير، وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها ألا تراك تقول مررت بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يعرج عليها والمعنى أن الملائكة خلقًا أجنحتم اثنان اثنان أي لكل واحد منهم جناحان وخلقاً أجنحتهم ثلاثة ثلاثة وخلقاً أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ أي: يزيد في خلق الأجنحة وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته والأصل الجناحان لأنهما بمنزلة اليدين ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل وذلك أقوى للطيران وأعون عليه.

فإن قُلتَ:قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شقّ نصفه فما صورة الثلاثة قُلتُ:لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة أو لعله لغير الطيران فقد مرّ بي في بعض الكتب أنّ صنفًا من الملائكة لهم ستة أجنحة، فجناحان يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله، وعن رسول الله ﷺ أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح[3]. وروي أنه سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته فقال: إنك لن تطيق ذلك قال: إني أحب أن تفعل، فخرج رسول الله ﷺ في ليلة مقمرة فأتاه جبريل في صورته فغشي على النبي ﷺ، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال: سبحان الله ما كنت أرى أن شيئًا من الخلق هكذا، فقال:

---

(1) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، ورواه الواحدي في التفسير، الزيلعي 3/142.

(2) تقدم في الأنعام.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وأخباره (الحديث رقم: 6428).

obeikandl.com

جبريل فكيف لو رأيت إسرافيل له اثنا عشر جناحًا جناح منها بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير[1] وروي عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿**يزيد في الخلق ما يشاء**﴾ «هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن»[2] وقيل: الخط الحسن وعن قتادة الملاحة في العينين والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش وحصافة في العقل وجزالة في الرأي وجراءة في القلب وسماحة في النفس وذلاقة في اللسان ولباقة في التكلم، وحسن تأن في مزاولة الأمور وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف.

مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾.

استعير الفتح للإطلاق والإرسال ألا ترى إلى قوله: ﴿**فلا مرسل له من بعده**﴾ مكان لا فاتح له يعني: أي شيء يطلق الله من رحمة أي من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها، وتنكيره الرحمة للإشاعة والإبهام كأنه قال من آية رحمة كانت سماوية، أو أرضية فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه.

فإن قُلْتَ: لم أنث الضمير أوّلاً ثم ذكر آخرًا وهو راجع في الحالين إلى الاسم المتضمن معنى الشرط **قُلْتُ:** هما لغتان الحمل على المعنى، وعلى اللفظ والمتكلم على الخيرة فيهما فأنث على معنى الرحمة وذكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تأنيث فيه ولأنّ الأوّل فسر بالرحمة، فحسن اتباع الضمير التفسير ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير. وقرئ فلا مرسل لها.

فإن قُلْتَ: لا بد للثاني من تفسير فما تفسيره **قُلْتُ:** يحتمل أن يكون تفسيره مثل تفسير الأوّل ولكنه ترك لدلالته عليه وأن يكون مطلقًا في كل ما يمسكه من غضبه ورحمته وإنما فسر الأوّل دون الثاني للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه.

فإن قُلْتَ: فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما؟ **قُلْتُ:** إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها وهو الذي أراده ابن عباس رضي الله عنهما إن قاله فمقبول وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصي تاب، وإن لم يشأ لم يتب فمردود لأنّ الله تعالى يشاء التوبة أبدًا ولا يجوز عليه أن لا يشاءها ﴿**من بعده**﴾ من بعد إمساكه كقوله تعالى: ﴿من يهديه من بعد الله﴾ [3]فبأي حديث بعد الله أي من بعد هدايته وبعد آياته ﴿**وهو العزيز**﴾ الغالب القادر على الإرسال والإمساك ﴿**الحكيم**﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾.

ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط ولكن به القلب وحفظها من الكفران والغمط وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه: اذكر أيادي عندك؛ يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها والخطاب عام للجميع لأنّ جميعهم مغمورون في نعمة الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما يريد يا أهل مكة اذكروا نعمة الله عليكم حيث أسكنكم حرمه ومنعكم من جميع العالم والناس يتخطفون من حولكم وعنه نعمة الله العافية، وقرئ غير الله بالحركات الثلاث فالجرّ والرفع على الوصف لفظًا ومحلاً والنصب على الاستثناء.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿**يرزقكم**﴾؛ **قُلْتُ:** يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق، وأن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق بإضمار يرزقكم وأوقعت يرزقكم تفسيرًا له، أو جعلته كلاماً مبتدأ[4] بعد قوله ﴿**هل من خالق غير الله**﴾.

فإن قُلْتَ: هل فيه دليل على أنّ الخالق لا يطلق على غير الله تعالى! **قُلْتُ:** نعم إن جعلت يرزقكم كلامًا مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة وأمّا على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد تقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض وخرج من الإطلاق فكيف يستشهد به على اختصاصه بالإطلاق[5]، والرزق من السماء المطر ومن الأرض النبات ﴿**لا إله إلا هو**﴾ جملة مفصولة لا محل لها مثل يرزقكم في الوجه الثالث، ولو وصلتها كما وصلت يرزقكم لم يساعد عليه المعنى لأنّ قولك هل من خالق آخر

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورواه ابن المبارك في كتاب: الزهد 3/146.

(2) عزاه الإمام القرطبي في تفسيره للإمام القشيري 14/320.

(3) سورة الجاثية، الآية: 23.

(4) قال أحمد: والوجه المؤخر أوجهها.

(5) قال أحمد: القدرية إذا قرعت هذه الآية أسماعهم قالوا بجراءة على الله تعالى: نعم ثم خالق غير الله؛ لأنّ كل أحد عندهم يخلق فعل نفسه، فلهذا رأيت الزمخشري وسع الدائرة وجلب الوجوه الشاردة النافرة، وجعل الوجهين يطابقان معتقده في إثبات خالق غير الله ووجهاً هو الحق والظاهر، وأخره في الذكر تأسياً له، = والذي يحقق الوجه الثالث وأنه هو المراد أن الآية خوطب بها قوم على أنهم مشركون إذا سئلوا عن رازقهم من السموات والأرض، قالوا: الله فقرروا بذلك، وقرعوا به إقامة للحجة عليهم بإقرارهم، ولو كان على غير هذا الوجه قيد لكان مفهومه إثبات خالق غير الله، لكنه لا يرزق وهؤلاء الكفرة قد تبرؤوا عن ذلك فلا وجه لتقريعهم بما يلائم قولهم هذا ترجيح الوجه الثالث من حيث مقصود سياق الآية، وأمّا من حيث النظم اللفظي فلأنّ الجملتين اللتين هما قوله: يرزقكم، وقوله: لا إله إلا هو سيقتا سياقاً واحداً، والثانية مفصولة اتفاقاً مما تقدّم، فكذلك وزينتها.

obeikandi.com

سوى الله لا إله إلاّ ذلك الخالق غير مستقيم لأنّ قولك هل من خالق سوى الله إثبات لله، فلو ذهبت تقول ذلك كنت مناقضًا بالنفي بعد الإثبات **﴿فأنى تؤفكون﴾** فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله وتكذيبهم بها وسلى رسوله ﷺ بأنّ له في الأنبياء قبله أسوة حسنة ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه، وقرئ: **﴿ترجع﴾** بضم التاء وفتحها.

فإن قُلْتَ: ما وجه صحة جزاء الشرط ومن حق الجزاء أن يتعقب الشرط وهذا سابق له **قُلْتُ:** معناه وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك، فوضع فقد كذبت رسل من قبلك موضع فتأس استغناء بالسبب عن المسبب أعني بالتكذيب عن التأسي.

فإن قُلْتَ: ما معنى التنكير في رسل؟ **قُلْتُ:** معناه، فقد كذبت رسل أي رسل ذوو عدد كثير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك وهذا أسلى له وأحث على المصابرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

وعد الله الجزاء بالثواب والعقاب **﴿فلا تغرّنكم﴾** فلا تخدعنكم **﴿الدنيا﴾** ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله **﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾** لا يقولون لكم اعملوا ما شئتم، فإن الله غفور يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة[1] والغرور الشيطان لأنّ ذلك ديدنه وقرئ بالضم، وهو مصدر غره كاللزوم والنهوك أو جمع غار كقاعد قعود.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

أخبرنا الله عز وجل أن الشيطان لنا عدوّ مبين واقتص علينا قصته وما فعل بأبينا آدم عليه السلام، وكيف انتدب لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا فوعظنا عز وجل بأنه كما علمتم عدوكم الذي لا عدوّ أعرق في العداوة منه وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله **﴿فاتخذوه عدوًّا﴾** في عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدن منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سركم وجهركم، ثم لخص سرّ أمره وخطأ من اتبعه بأنّ غرضه الذي يؤمّه في دعوة شيعته ومتبعي خطواته هو أن يوردهم مورد الشقوة والهلاك وأن يكونوا من أصحاب السعير، ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء ليقطع الأطماع الفارغة والأماني الكاذبة فبني الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا قال لنبيه:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا﴾ يعني: أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له فكأن رسول الله ﷺ قال لا فقال: **﴿فإنّ الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾** ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدي عليه المصالح حتى يستوجب ذلك خذلان الله تعالى، وتخليته وشأنه فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق آمر النهي ويعتنق طاعة الهوى حتى يرى القبيح حسنًا، والحسن قبيحًا كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه ويقعد تحت قول أبي نواس:

اسقني حتى تراني حسنًا عند القبيح

وإذا خذل الله المصممين على الكفر وخلاهم وشأنهم فإنّ على الرسول أن لا يهتم بأمرهم ولا يلقى بإلا إلى ذكرهم ولا يحزن، ولا يتحسر عليهم اقتداء بسنة الله تعالى في خذلانهم وتخليتهم وذكر الزجاج أنّ المعنى: أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه، أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله فحذف لدلالة فإنّ الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. عليه حسرات مفعول له يعني: فلا تهلك نفسك للحسرات وعليهم صلة تذهب كما تقول هلك عليه حبًا ومات عليه حزنًا أو هو بيان للمتحسر عليه، ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأنّ المصدر لا يتقدّم عليه صلته ويجوز أن يكون حالاً كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر كما قال جرير:

مشق الهواجر لحمهن مع السرى حتى ذهبن كلاكلاً وصدورًا

يريد رجعن كلاً كلاً وصدورًا أي لم يبق إلا كلاً كلها وصدورها ومنه قوله:

فعلى أثرهم تساقط نفسي حسرات وذكرهم لي سقام

وقرئ: **﴿فلا تذهب نفسك﴾** **﴿إنّ الله عليم بما يصنعون﴾** وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

---

(1) قال أحمد: هو يعرّض بأهل السنة في اعتقادهم جواز مغفرة الكبائر للموحد وإن لم يكن توبة وهذا لا يناقض صدق وعده تعالى، لأن الله تعالى حيث توعد على الكبائر قرن الوعد بالمشيئة = في مثل قوله لهم: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، فهم إذاً مصدّقون بوعد الله تعالى موقنون به على حسب ما ورد.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

وقرئ: ﴿أرسل الريح﴾

فإن قُلْتَ:لم جاء فتثير على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ **قُلْتُ**:ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك كما قال تأبط شرًا.

بأني قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصحان
أضربها بلا دهش فخرت صريعًا لليدين وللجران

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياهم ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدّة، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: فسقنا وأحيينا معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه والكاف في ﴿كذلك﴾ في محلّ الرفع أي مثل إحياء الموات نشور الأموات، وروي أنه قيل لرسول الله ﷺ كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه فقال: «هل مررت بوادي أهلك محلاً ثم مررت به يهزّ خضرًا». قال: نعم قال: «فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه»[1]. وقيل: يحيي الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجساد الخلق.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

كان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال عز وجل: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًا﴾ والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال تعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإنّ العزة لله جميعًا﴾[2] فبين أن لا عزة إلاّ لله ولأوليائه، وقال: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ والمعنى: فليطلبها عند الله فوضع قوله ﴿فلله العزة جميعًا﴾ موضعه استغناء به عنه لدلالته عليه لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه ومالكه ونظيره قولك: من أراد النصيحة فهي عند الأبرار، تريد فليطلبها عندهم إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه ومعنى فلله العزة جميعًا أنّ العزة كلها مختصة بالله: عزة الدنيا وعزة الآخرة، ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ والكلم الطيب لا إلّه إلاّ الله. عن ابن عباس رضي الله عنهما يعني: أنّ هذه الكلم لا تقبل ولا تصعد إلى السماء، فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة كما قال عز وجل: إنّ كتاب الأبرار لفي عليين إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها وقيل: الرافع الكلم والمرفوع العمل لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد وقيل: الرافع هو الله تعالى والمرفوع العمل وقيل: الكلم الطيب كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل، وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك وعن النبي ﷺ هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء، فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل منه[3]، وفي الحديث لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا يقبل قولاً ولا عملاً إلا بنية ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة[4]، وعن ابن المقفع: قول بلا عمل كثريد بلا دسم وسحاب بلا مطر وقوس بلا وتر. وقرئ إليه يصعد الكلم الطيب على البناء للمفعول وإليه يصعد الكلم الطيب على تسمية الفاعل من أصعد والمصعد هو الرجل أي يصعد إلى الله عز وجل الكلم الطيب وإليه يصعد الكلام الطيب، وقرئ والعمل الصالح يرفعه بنصب العمل والرافع الكلم أو الله عز وجل.

فإن قُلْتَ:مكر فعل غير متعدّ لا يقال مكر فلان عمله فبم نصب ﴿السيئات﴾؟ **قُلْتُ**:هذه صفة للمصدر أو لما في حكمه كقوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾[5] أصله والذين مكروا المكرات السيئات أو أصناف المكر السيئات وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في دار الندوة وتداوروا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله ﷺ إما إثباته أو قتله أو إخراجه كما حكى الله سبحانه عنهم: ﴿إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ يعني ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور أي: يكسد ويفسد دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر، فجمع عليهم مكراتهم جميعًا وحقق فيهم قوله: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[6] وقوله: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾[7].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ

---

(1) أخرجه أحمد في المسند 4/11. والحاكم في المستدرك 4/560.
(2) سورة النساء، الآية: 139.
(3) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/426.
(4) رواه الخطيب البغدادي في كتاب: الجامع لآداب الراوي والسامع، الزيلعي 3/149.
(5) سورة فاطر، الآية: 43.
(6) سورة الأنفال، الآية: 30.
(7) سورة فاطر، الآية: 43.

مِن أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾.

﴿أزواجًا﴾ أصنافًا أو ذكرانًا وإناثًا كقوله تعالى: **﴿أو يزوّجهم ذكرانًا وإناثًا﴾**، وعن قتادة رضي الله عنه زوج بعضهم بعضًا **﴿بعلمه﴾** في موضع الحال أي إلا معلومة له.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: وما يعمر من معمر؟ **قُلْتُ:** معناه وما يعمر من أحد وإنما سماه معمرًا بما هو صائر إليه.

فإن قُلْتَ: الإنسان إما معمر أي: طويل العمر أو منقوص العمر أي: قصيره فإما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال فكيف صح قوله: **﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾**؟ **قُلْتُ:** هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تاويله بافهام السامعين واتكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم وانه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس المستفيض يقولون: لا يثيب الله عبدًا ولا يعاقبه إلا بحق، وما تنعمت بلدًا ولا اجتويته إلا قل فيه ثوائي، وفيه تأويل آخر وهو أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب وصورته أن يكتب في اللوح إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة وإن حج وغزا فعمره ستون سنة فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر وإذا أفرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعون فقد نقص من عمره الذي هو الغاية، وهو الستون وإليه أشار رسول الله ﷺ في قوله: «إنّ الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار»[1]. وعن كعب أنه قال حين طعن عمر رضي الله عنه: لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله[2] فقيل لكعب: أليس قد قال الله: **﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾**[3] قال: فقد قال الله: وما يعمر من معمر وقد استفاض على الألسنة أطال الله بقاءك وفسح في مدتك وما أشبهه وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى ياتي على آخره وعن قتادة رضي الله عنه المعمر من بلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة والكتاب اللوح، عن ابن عباس رضي الله عنهما ويجوز أن يراد بكتاب الله علم الله أو صحيفة الإنسان وقرئ ولا ينقص على تسمية الفاعل من عمره بالتخفيف.

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾.

ضرب البحرين العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر، ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه **﴿ومن كل﴾** أي ومن كل واحد منهما **﴿تاكلون لحمًا طريًا﴾** وهو السمك **﴿وتستخرجون حلية﴾** وهي اللؤلؤ والمرجان **﴿وترى الفلك فيه﴾** في كل **﴿مواخر﴾** شواق للماء بجريها يقال: مخرت السفينة الماء ويقال للسحاب بنات مخر لأنها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره **﴿من فضله﴾** من فضل الله ولم يجر له ذكر في الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه، وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل كأنما قيل: لتبتغوا ولتشكروا، والفرات الذي يكسر العطش. والسائغ المريّ السهل الانحدار لعذوبته وقرئ سيغ بوزن سيد وسيغ بالتخفيف وملح على فعل، والأجاج الذي يحرق بملوحته ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع فهو في طريقة قوله تعالى: **﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة﴾**[4]، ثم قال: **﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإنّ منها لما يشقق، فيخرج منه الماء وإنّ منها لما يهبط من خشية الله﴾**[5].

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾.

﴿ذلكم﴾ مبتدأ و**﴿الله ربكم له الملك﴾** أخبار مترادفة أو الله ربكم خبران وله الملك جملة مبتدأة واقعة في قران قوله: **﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قمطير﴾** ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة، أو عطف بيان وربكم خبرًا لولا أنّ المعنى يأباه والقطمير لفافة النواة وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها.

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾.

إن تدعوا الأوثان **﴿لا يسمعوا دعاءكم﴾** لأنهم جماد **﴿ولو سمعوا﴾** على سبيل الفرض والتمثيل لـ **﴿ما استجابوا لكم﴾** لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلـٰهية، ويتبرؤون منها وقيل: ما نفعوكم **﴿يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾** ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به ويريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به والمعنى أنّ هذا الذي

(1) أخرجه أحمد في المسند 6/159.
(2) عزاه الزيلعي لإسحاق بن راهويه 3/151.
(3) سورة النمل، الآية: 61 وسورة الأعراف، الآية: 34.
(4) سورة البقرة، الآية: 74.
(5) سورة البقرة، الآية: 74.

أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأني خبير بما أخبرت به وقرئ يدعون بالياء والباء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

فإن قُلْتَ: لم عرَّف الفقراء؟ **قُلْتُ:** قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدّة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس، وغيرهم لأنّ الفقر مما يتبع الضعف وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله وخلق الإنسان ضعيفًا وقال سبحانه وتعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾[1] ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء.

فإن قُلْتَ: قد قوبل الفقراء بالغنى، فما فائدة الحميد؟ **قُلْتُ:** لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم وليس كل غني نافعًا بغناه إلا إذا كان الغني جوادًا منعمًا، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد ذكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه الحميد على ألسنة مؤمنيهم.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿بعزيز﴾ بممتنع وهذا غضب عليهم لاتخاذهم له أندادًا وكفرهم بآياته ومعاصيهم كما قال: وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم وعن ابن عباس رضي الله عنهما يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئًا.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

الوزر والوقر أخوان ووزر الشيء إذا حمله، والوازرة صفة للنفس والمعنى أنّ كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته لا تؤخذ نفس بذنب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الولي بالولي والجار بالجار.

فإن قُلْتَ: هلا قيل ولا تزر نفس وزر أخرى ولم قيل وازرة **قُلْتُ:** لأنّ المعنى: أنّ النفوس الوازرات لا ترى منهنّ واحدة إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها.

فإن قُلْتَ: كيف توفق بين هذا وبين قوله وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم **قُلْتُ:** تلك الآية في الضالين المضلين وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم بقوله تعالى: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين معنى قوله **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** وبين معنى **﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء﴾**؟ **قُلْتُ:** الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه وأنه تعالى لا يؤاخذ نفسًا بغير ذنبها والثاني في أن لا غياث يومئذ لمن استغاث حتى أنّ نفسًا قد أثقلتها الأوزار وبهظتها لودعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث وإن كان المدعوّ بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ.

فإن قُلْتَ: إلام أسند كان في **﴿ولو كان ذا قربى﴾** **قُلْتُ:** إلى المدعوّ المفهوم من قوله وإن تدع مثقلة.

فإن قُلْتَ: فلم ترك ذكر المدعو؟ **قُلْتُ:** ليعمّ ويشمل كل مدعو.

فإن قُلْتَ: كيف استقام إضمار العام ولا يصح أن يكون العام ذا قربى للمثقلة **قُلْتُ:** هو من العموم الكائن على طريق البدل.

فإن قُلْتَ: ما تقول فيمن قرأ ولو كان ذو قربى على كان التامّة كقوله تعالى: وإن كان ذو عسرة **قُلْتُ:** نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لأنّ المعنى على أن المثقلة إن دعت أحدًا إلى حملها لا يحمل منه شيء وإن كان مدعوّها ذا قربى وهو معنى صحيح ملتئم ولو قلت، ولو وجد ذو قربى لتفكك وخرج من اتساقه والتئامه على أنّ ههنا ما ساغ أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ما أوردته **﴿بالغيب﴾** حال من الفاعل أو المفعول أي يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائبًا عنهم وقيل: بالغيب في السر وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ من أصحابه فكانت عادتهم المستمرّة أن يخشوا الله، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوها منارًا منصوبًا وعلمًا مرفوعًا يعني إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم دون متمرّديهم وأهل عنادهم **﴿ومن تزكى﴾** ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي، وقرئ ومن أزكى فإنما يزكي وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي **﴿وإلى الله المصير﴾** وعد للمتزكين بالثواب.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله إنما تنذر بما قبله؟ **قُلْتُ:** لما غضب عليهم في قوله إن يشأ يذهبكم اتبعه الإنذار بيوم القيامة وذكر أهوالها، ثم قال: إنما تنذر كأن رسول الله ﷺ أسمعهم ذلك فلم ينفع فنزل إنما تنذر أو أخبره الله تعالى بعلمه فيهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾.

(1) سورة الروم، الآية: 54.

obeikandi.com

﴿الأعمى والبصير﴾ مثل للكافر والمؤمن كما ضرب البحرين مثلاً لهما أو للصنم والله عزّ وجلّ.

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾.

والظلمات والنور والظلّ والحرور مثلاً للحق والباطل وما يؤدّيان إليه من الثواب والعقاب.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾.

والأحياء والأموات مثل الذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه وأصروا على الكفر. والحرور السموم إلا أنّ السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار وقيل: بالليل خاصة.

فإن قُلْتَ: لا المقرونة بواو العطف ما هي؟ **قُلْتُ**: إذا وقعت الواو في النفي قرنت بها لتأكيد معنى النفي.

فإن قُلْتَ: هل من فرق بين هذه الواوات؟ **قُلْتُ**: بعضها ضمت شفعًا إلى شفع وبعضها وترًا إلى وتر ﴿إنّ الله يسمع من يشاء﴾ يعني: أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه فيهدي الذي قد علم أنّ الهداية تنفع فيه، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه وأمّا أنت فخفي عليك أمرهم فلذلك تحرص وتتهالك على إسلام قوم من المخذولين ومثلك في ذلك مثل من يريد أن يسمع المقبورين وينذر وذلك ما لا سبيل إليه ثم قال:

إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾.

﴿إن أنت إلا نذير﴾ أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع وإن كان من المصرين فلا عليك ويحتمل أنّ الله يسمع من يشاء أنه قادر على أن يهدي المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق، وأما أنت فلا حيلة لك في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾.

﴿بالحق﴾ حال من أحد الضميرين يعني: محقًا أو محقين أو صفة للمصدر أي: إرسالاً مصحوبًا بالحق أو صلة لبشير ونذير على بشيرًا بالوعد الحق ونذيرًا بالوعيد الحق، والأمّة الجماعة الكثيرة قال الله تعالى: ﴿وجد عليه أمّة من الناس﴾[1] ويقال لأهل كل عصر: أمّة وفي حدود المتكلمين الأمّة هم المصدّقون بالرسول ﷺ دون المبعوث إليهم وهم الذين يعتبر إجماعهم والمراد ههنا أهل العصر.

فإن قُلْتَ: كم من أمّة في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ولم يخل فيها نذير؟ **قُلْتُ**: إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمدًا ﷺ.

فإن قُلْتَ: كيف اكتفى بذكر النذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما؟ **قُلْتُ**: لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة دلّ ذكرها على ذكرها لا سيما قد اشتملت الآية على ذكرهما.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾.

﴿بالبينات﴾ بالشواهد على صحة النبوّة وهي المعجزات ﴿وبالزبر﴾ وبالصحف ﴿وبالكتاب المنير﴾ نحو التوراة والإنجيل والزبور. لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسنادًا مطلقًا وإن كان بعضها في جميعهم وهي البينات وبعضها في بعضهم وهي الزبر والكتاب وفيه مسلاة لرسول الله ﷺ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾.

﴿ألوانها﴾ أجناسها من الزمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها والجدد: الخطط والطرائق قال لبيد: أو مذهب جدد على ألواحه، ويقال جدت الحمار للخطة السوداء على ظهره وقد يكون للظبي جدتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه ﴿وغرابيب﴾ معطوف على بيض أو على جدد كأنه قيل: ومن الجبال مخطط ذو جدد، ومنها ما هو على لون واحد غرابيب وعن عكرمة رضي الله عنه هي الجبال الطوال السود.

فإن قُلْتَ: الغربيب تأكيد للأسود يقال: أسود غربيب وأسود حلكوك وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه ومنه الغراب ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع وأبيض يقق وما أشبه ذلك. **قُلْتُ**: وجهه أن يضمر المؤكد قبله ويكون الذي بعده تفسيرًا لما أضمر كقول النابغة والمؤمن العائذات الطير، وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريق الإظهار والإضمار جميعًا ولا بد من تقدير حذف المضاف في قوله تعالى: ﴿ومن الجبال جدد﴾ بمعنى ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود حتى يؤل إلى قولك ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال ثمرات مختلفًا ألوانها.

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾.

﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه﴾ يعني: ومنهم بعض مختلف ألوانه وقرئ ألوانها وقرأ

(1) سورة القصص، الآية: 23.

obeikandi.com

الزهري جدد بالضم جمع جديدة وهي الجدّة يقال جديدة وجدد وجدائد كسفينة وسفن وسفائن وقد فسر بها قول أبي ذؤيب يصف حمار وحش:

جون السراة له جدائد أربع

وروي عنه جدد بفتحتين وهو الطريق الواضح المفسر وضعه موضع لطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض، وقرئ والدواب مخففًا ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ ولا الضالين لأنّ كل واحد منهما فرار من التقاء الساكنين فحرّك ذاك أوّلهما وحذف هذا آخرهما وقوله ﴿كذلك﴾ أي كاختلاف الثمرات والجبال المراد العلماء به الذين علموه بصفاته وعدله وتوحيده وما يجوز عليه، وما لا يجوز فعظّموه وقدّروه حق قدره وخشوه من خشيته ومن ازداد به علمًا ازداد منه خوفًا ومن كان علمه به أقل آمن وفي الحديث: «أعلمكم بالله أشدّكم له خشية»[1]. وعن مسروق: كفى بالمرء علمًا أن يخشى وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه. وقال رجل للشعبي: أفتني أيها العالم فقال: العالم من خشي الله وقيل: نزلت في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه.

فإن قُلْتَ: هل يختلف المعنى إذا قدّم المفعول في هذا الكلام أو أخر؟ **قُلْتُ:** لا بدّ من ذلك فإنك إذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى إنّ الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله تعالى: ﴿ولا يخشون أحدًا إلا الله﴾[2] وهما معنيان مختلفان.

فإن قُلْتَ: ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله؟ **قُلْتُ:** لما قال ألم تر بمعنى ألم تعلم أنّ الله أنزل من السماء ماء وعدّد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته أتبع ذلك ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ كأنه قال: إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه وعن النبي ﷺ: «أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به»[3].

فإن قُلْتَ: فما وجه قراءة من قرأ: إنما يخشى الله من عباده العلماء وهو عمر بن عبد العزيز، ويحكى عن أبي حنيفة؟ **قُلْتُ:** الخشية في هذه القراءة استعارة والمعنى: إنما يجلهم ويعظمهم كما يجل المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده ﴿إن الله عزيز غفور﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة، وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المثيب حقه أن يخشى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾

﴿يتلون كتاب الله﴾ يداومون على تلاوته وهي شأنهم وديدنهم وعن مطرف رحمه الله هي آية القرّاء وعن الكلبي رحمه الله يأخذون بما فيه وقيل: يعلمون ما فيه ويعملون به، وعن السدي رحمه الله: هم أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم وعن عطاء: هم المؤمنون ﴿يرجون﴾ خبر إن والتجارة طلب الثواب بالطاعة.

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

و﴿ليوفيهم﴾ متعلق بلن تبور أي تجارة ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله ليوفيهم بنفاقها عنده ﴿أجورهم﴾ وهي ما استحقوه من الثواب ﴿ويزيدهم﴾ من التفضل عن المستحق وإن شئت جعلت يرجون في موضع الحال على وأنفقوا راجين ليوفيهم أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله لهذا الغرض، وخبر إن قوله: ﴿إنه غفور شكور﴾ على معنى غفور لهم شكور لأعمالهم والشكر مجاز عن الإثابة.

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

﴿الكتاب﴾ القرآن ومن للتبيين أو الجنس ومن للتبعيض ﴿مصدقًا﴾ حال مؤكدة لأنّ الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿لما بين يديه﴾ لما تقدّمه من الكتب ﴿لخبير بصير﴾ يعني: أنه خبرك وأبصر أحوالك فرآك أهلاً لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله:

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ **قُلْتُ:** فيه وجهان أحدهما إنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثنا من بعدك أي حكمنا بتوريثه أو قال أورثناه وهو يريد نورثه لما عليه أخبار الله ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم أمّته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة لأنّ الله اصطفاه على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطًا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله وحمل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله، ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم، وهو المرجأ لأمر الله ومقتصد وهو الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا وسابق من السابقين والوجه

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ «أنا أعلمكم بالله» (الحديث رقم: 20) (بمعناه).

(2) سورة الأحزاب، الآية: 39.

(3) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الصيام، باب: ما جاء في الرخصة في القبلة للصائم (الحديث رقم: 13).

obeykandl.com

الثاني أنه قدم إرساله في كل أمّة رسولاً وأنهم كذبوا برسلهم، وقد جاؤهم بالبينات والزبر والكتاب المنير ثم قال إنّ الذين يتلون كتاب الله فأثنى على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم واعترض بقوله والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ثم قال: ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا أي من بعد أولئك المذكورين يريد بالمصطفين من عباده أهل الملة الحنيفية.

فإن **قُلْتَ**: فكيف جعلت

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿جنات عدن﴾ بدلاً من الفضل الكبير الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك؟ **قُلْتُ**: لما كان السبب في نيل الثواب نزل منزلة المسبب كأنه هو الثواب فأبدلت عنه جنات عدن وفي اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر فليحذر المقتصد وليملك الظالم لنفسه حذرًا وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ولا يغترا بما رواه عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له»[1] فإنّ شرط ذلك صحة التوبة لقوله تعالى: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾[2] وقوله: ﴿إمّا يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾[3] ولقد نطق القرآن بذلك في مواضع من استقراها اطلع على حقيقة الأمر ولم يعلل نفسه بالخدع[4]، وقرئ سباق ومعنى بإذن الله بتيسيره وتوفيقه.

فإن **قُلْتَ**: لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ **قُلْتُ**: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وأنّ المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقين أقل من القليل، وقرئ جنة عدن على الإفراد كأنها جنة مختصة بالسابقين وجنات عدن بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر أن يدخلون جنات عدن يدخلونها ويدخلونها على البناء للمفعول، ويحلون من حليت المراة فهي حال **﴿ولؤلؤا﴾** معطوف على محل من أساور ومن داخلة للتبعيض أي يحلون بعض أساور من ذهب كأنه بعض سابق لسائر الأبعاض كما سبق المسورون به غيرهم وقيل: إنّ ذلك الذهب في صفاء اللؤلؤ وقرئ ولولؤًا بتخفيف الهمزة الأولى.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

وقرئ الحزن والمراد حزن المتقين وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة كقوله تعالى: ﴿إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾[5] وعن ابن عباس رضي الله عنهما حزن الأعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن إبليس ووسوسته وقيل همّ المعاش وقيل: حزن زوال النعم وقد أكثروا حتى قال بعضهم: كراء الدار ومعناه أنه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا وعن رسول الله ﷺ ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في مسيرهم وكأني بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن[6]، وذكر الشكور دليل على أن القوم كثيرو الحسنات.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

المقامة بمعنى الإقامة يقال أقمت إقامة ومقامًا ومقامة **﴿من فضله﴾** من عطائه وإفضاله من قولهم لفلان فضول على قومه وفواضل وليس من الفضل الذي هو التفضل لأنّ الثواب بمنزلة الأجر المستحق والتفضل كالتبرع، وقرئ لغوب بالفتح وهو اسم ما يلغب منه أي لا نتكلف عملاً يلغبنا أو مصدر كالقبول والولوع أو صفة للمصدر كأنه لغوب لغوب كقولك: موت مائت.

فإن **قُلْتَ**: ما الفرق بين النصب واللغوب **قُلْتُ**: النصب التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب فالنصب نفس المشقة والكلفة واللغوب نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فيموتوا﴾ جواب النفي ونصبه بإضمار أن وقرئ فيموتون عطفًا على يقضي وإدخالاً له في حكم النفي أي لا يقضي عليهم الموت فلا يموتون كقوله تعالى: ﴿ولا يؤذن

---

(1) قال الزيلعي رواه البيهقي في كتاب: البعث والنثور: 3/ 153.

(2) سورة التوبة، الآية: 102.

(3) سورة التوبة، الآية: 106.

(4) قال أحمد: وقد صدرت هذه الآية بذكر المصطفين من عباد الله، ثم قسمتهم إلى الظالم، والمقتصد السابق ليلزم اندراج الظالم لنفسه من الموحدين في المصطفين، وإنه لمنهم وأي نعمة أتم وأعظم من اصطفائه للتوحيد والعقائد السالمة من البدع، فما بال المصنف يطنب في التسوية بين الموحد المصطفى والكافر المجترى،=

= وقوله: ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ الضمير فيه راجع إلى المصطفين عموماً، والجنات جزاؤهم على توحيدهم جميعاً، وإعرابها جنات مبتدأ ويدخلونها الخبر. وقوله: ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير﴾ إلى آخر الآية خبر بعد خبر، وخير على خير والله المستعان.

(5) سورة الطور، الآية: 26 ـ 27.

(6) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الإيمان بالله عز وجل (الحديث: 100).

obeikandi.com

لهم فيعتذرون﴾[1] ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿يجزى﴾ وقرئ يجازي ونجزي ﴿كل كفور﴾ بالنون.

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾.

﴿يصطرخون﴾ يتصارخون يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدّة قال: كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها، واستعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته.

فإن قُلْتَ: هلا اكتفى بصالحًا كما اكتفى به في قوله تعالى: ﴿فارجعنا نعمل صالحًا﴾، وما فائدة زيادة ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ على أنه يؤذن انهم يعملون صالحًا آخر غير الصالح الذي عملوه **قُلْتُ:** فائدة زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به وأما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي ولأنهم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة كما قال الله تعالى: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا﴾ فقالوا: أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نحسبه صالحًا فنعمله ﴿أو لم نعمركم﴾ توبيخ من الله يعني فنقول لهم، وقرئ ما يذكر فيه من اذكّر على الإدغام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم وعن النبي ﷺ: «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة»[2]. وعن مجاهد بين العشرين إلى الستين وقيل: ثماني عشر وسبع عشر و﴿النذير﴾ الرسول ﷺ وقيل: الشيب، وقرئ: وجاءتكم النذر.

فإن قُلْتَ: علام عطف وجاءكم النذير؟ **قُلْتُ:** على معنى أو لم نعمركم لأن لفظه لفظ استخبار ومعناه معنى إخبار كأنه قيل: قد عمرناكم وجاءكم النذير.

إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ كالتعليل لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون فقد علم كل غيب في العالم وذات الصدور: مضمراتها وهي تأنيث ذو في نحو قول أبي بكر رضي الله عنه ذو بطن خارجة جارية[3] وقوله لتغني عن ذا إنائك أجمعا، المعنى ما في بطنها من الحبل وما في إنائك من الشراب لأنّ الحبل والشراب يصحبان البطن والإناء ألا ترى إلى قولهم معها حبل وكذلك المضمرات تصحب الصدور وهي معها وذو موضوع لمعنى الصحبة.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾.

يقال للمستخلف خليفة وخليف فالخليفة تجمع خلائف والخليف خلفاء والمعنى أنه جعلكم خلفاءه في أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فمن كفر﴾ منكم وغمط مثل هذه النعمة السنية فوبال كفره راجع عليه وهو مقت الله الذي ليس وراءه خزي وصغار وخسار الآخرة الذي ما بقي بعده خسار والمقت أشدّ البغض ومنه قيل: لمن ينكح امرأة أبيه مقتى لكونه ممقوتًا في كل قلب وهو خطاب الناس وقيل: خطاب لمن بعث إليهم رسول الله ﷺ جعلكم أمّة خلفت من قبلها ورأت وشاهدت فيمن سلف ما ينبغي أن تعتبر به فمن كفر منكم فعليه جزاء كفره من مقت الله وخسار الآخرة كما أنّ ذلك حكم من قبلكم.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾.

﴿أروني﴾ بدل من أرأيتم لأنّ المعنى أرأيتم أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة أروني أيّ جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله أم لهم مع الله شركة في خلق السموات أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب أو يكون الضمير في آتيناهم للمشركين كقوله تعالى: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطانًا﴾[4] ﴿أم آتيناهم كتابًا من قبله﴾[5] بل إن يعد بعضهم وهم الرؤساء ﴿بعضًا﴾ وهم الاتباع ﴿إلا غرورًا﴾ وهو قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقرئ: ﴿بينات﴾.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾.

﴿أن تزولا﴾ كراهة أن تزولا أو يمنعهما من أن تزولا لأن الإمساك منع ﴿إنه كان حليمًا غفورًا﴾ غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدا هدًا لعظم كلمة الشرك كما قال: تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض، وقرئ ولو زالتا وإن أمسكهما جواب القسم في ولئن زالتا سدّ مسدّ الجوابين ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفي والثانية للابتداء، من بعده من بعد إمساكه وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال لرجل مقبل من الشام من لقيت به؟ قال: كعباً قال: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته

(1) سورة المرسلات، الآية: 36.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من بلغ ستين سنة فقد عذر الله إليه في العمر (الحديث: 6419).

(3) تقدم في الإسراء.

(4) سورة الروم، الآية: 35.

(5) سورة الزخرف، الآية: 21.

يقول إنّ السموات على منكب ملك قال: كذب كعب أما ترك يهوديته بعد! ثم قرأ هذه الآية[1].

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾.

بلغ قريشًا قبل مبعث رسول الله ﷺ أنّ أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقال: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم فلما بعث رسول الله ﷺ كذبوه، وفي ﴿إحدى الأمم﴾ وجهان أحدهما من بعض الأمم ومن واحدة من الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم والثاني من الأمّة التي يقال لها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة ﴿ما زادهم﴾ إسناد مجازي لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم نفورًا عن الحق وابتعادًا عنه كقوله تعالى: ﴿فزادهم رجسًا إلى رجسهم﴾[2].

ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾.

﴿استكبارًا﴾ بدل من نفورًا أو مفعول له على معنى ما زادهم إلا أن نفروا استكبارًا وعلوًا ﴿في الأرض﴾ أو حال بمعنى مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ والمؤمنين، ويجوز أن يكون ﴿ومكر السيء﴾ معطوفًا على نفورًا.

فإن قُلتَ: فما وجه قوله ومكر السيء قُلتُ: أصله وإن مكروا السيء أي المكر السيء ثم ومكر السيء ثم مكر السيء والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق يحيط وينزل وقرئ: ﴿ولا يحيق المكر السيء﴾ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ ومعنى يحيق يحيط وينزل وقرئ: ﴿ولا يحيق المكر السيء﴾ أي لا يحيق الله ولقد حاق بهم يوم بدر وعن النبي ﷺ: «لا تمكروا ولا تعينوا ماكرًا»[3]، فإن الله تعالى يقول: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ولا تبغوا ولا تعينوا باغيًا﴾[4] يقول الله تعالى: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾[5] وعن كعب أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما قرأت في التوراة من حفر مغواة وقع فيها قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله وقرأ الآية وفي أمثال العرب: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكبًا وقرأ حمزة ومكر السيء بإسكان الهمزة وذلك لاستثقاله الحركات مع الياء والهمزة ولعله اختلس فظنّ سكونًا أو وقف وقفة خفيفة، ثم ابتدأ ولا يحيق وقرأ ابن مسعود ومكرًا سيئًا

﴿سنت الأولين﴾ إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم وجعل استقبالهم لذلك انتظارًا له منهم وبين أنّ عادته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا يبدلها ولا يحولها أي لا يغيرها وأن ذلك مفعول له لا محالة واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾.

﴿ليعجزه﴾ ليسبقه ويفوته.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾.

﴿بما كسبوا﴾ بما اقترفوا من معاصيهم ﴿على ظهرها﴾ على ظهر الأرض ﴿من دابة﴾ من نسمة تدب عليها يريد بني آدم وقيل ما ترك بني آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم وعن ابن مسعود: كاد الجعل يعذب في جحره بذنب ابن آدم[6] ثم تلا هذه الآية وعن أنس: أنّ الضب ليموت هزلاً في جحره بذنب ابن آدم[7] وقيل: يحبس المطر فيهلك كل شيء ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى يوم القيامة ﴿كان بعباده بصيرًا﴾ وعيد بالجزاء عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن ادخل من أي باب شئت[8].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يس مكية

يسٓ ﴿١﴾.

قرئ: يس بالفتح كأين وكيف أو بالنصب على أتل يس وبالكسر على الأهل كثير وبالرفع على هذه يس أو بالضم كحيث وفخمت الألف وأميلت وعن ابن عباس رضي الله عنهما معناه: يا إنسان في لغة طيء والله أعلم بصحته وإن صح فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين فكثر النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره كما قالوا، في القسم

(1) ذكره الطبري في تفسيره.
(2) سورة التوبة، الآية: 125.
(3) ذكره ابن المبارك في الزهد، وتقدم في يونس.
(4) سورة فاطر، الآية: 43.
(5) سورة يونس، الآية: 23.
(6) أخرجه الحاكم في المستدرك، وتقدم في يونس.
(7) أخرجهُ الحاكم في المستدرك وتقدم في النحل.
(8) ذكره الواحدي وابن مردويه والثعلبي في التفسير، الزيلعي 3/ 158.